مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 13 عدد: 1 مارس 2024
ص: 327 - 337 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

حجاجية البيان في سورة الملك

The Proof of the Statement in Surat Al-MulK

شمس الهدى تايب[1] / السبتي سلطاني[2] *
Chams El Houda Taib[1] / Sebti Soltani[2]
مخبر تعليمية اللغات والتواصل في ظل التكنولوجيات الحديثة
جامعة الشاذلي بن جديد الطارف (الجزائر)
Université Chadli Bendjedid El Tarf (Algeria)
ch.taib@univ-eltarf.dz[1] / Sebtisoltani@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال: 2023/08/07	تاريخ القبول2024/01/15	تاريخ النشر: 2024/03/02

مُلخّص البحث

يعتمد الخطاب في الحجاج على تقنيات مخصوصة تختص بمجال من المجالات دون غيره يطوعها المتكلم حسب استعماله لها، حيث يعمد إلى توظيف هذه الآليات والأساليب البلاغية بخصائصها وإمكانياتها الإقناعية، فتكون بمثابة قوالب تنظم الحجج وتوجهها، فتعينه – المتكلم- على تقديمها في الهيكل الذي يتناسب والسياق الذي ترد فيه، ويتم التعامل مع الأساليب البلاغية بمفهوم أوسع لتؤدي وظيفة لا جمالية بل تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية، وقد اهتم الدارسون منذ عهد أرسطو إلى اليوم بالآلية البيانية، كما أن البلاغة العربية تزخر بها وتوظفها وتطوعها بغية الوصول إلى الأذهان والأفهام والتأثير في المتلقين، وتحاول هذه الدراسة الكشف عن كيفية تحول اشتغال الصور البيانية من أداء أغراض جمالية إلى إنجاز مقاصد حجاجية في سورة الملك.

الكلمات المفتاح : بيان، حجاج، اعجاز، استدلال، بلاغة عربية، خطاب قرآني.

Abstract :

The discourse in "Pilgrims" utilizes specific techniques adapted by the speaker based on their intentions. These methods and rhetorical tools are structured to organize arguments and serve as persuasive templates. The speaker employs these techniques to match the context, aiming for a persuasive and inferential role rather than just aesthetics. Scholars have long been intrigued by such rhetorical mechanisms, seen in Arabic rhetoric as well, which is used to influence recipients' understanding. The study explores the transformation of

* شمس الهدى تايب: ch.taib@univ-eltarf.dz

graphic imagery's purpose from general use to aiding pilgrimage objectives in Surat Al-Mulk.

Key words: Statement, Pilgrims, Inimitability, Inference, Arabic rhetorc, Quranic discourse.

المقدمة:

تميز العرب القدامى بحسن البيان وفصاحة اللسان على امتداد طويل من الزمن، غير أن هذه البلاغة والفصاحة ظلت عاجزة أمام معجزة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم- التي كانت وما زالت بمثابة تحد واضح وصريح لهم وقد ورد هذا التحدي باللفظ الصريح في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء: 88.

إن القرآن الكريم كلام الله المعجز بآياته الذي أعجز العرب عن مجاراته ومناظرته ومشاكلته، وحير عقولهم؛ لما يختص به من جودة السبك وحسن الوصف والتصوير وبراعة التركيب وسلامته وجزالة الألفاظ وسلاستها، كل هذا التميز والتشريف كان باعثا رئيسا استقطب اهتمام البلاغيين وشغفهم به، سعيا منهم إلى فهم معانيه ومقاصده واستكناه أسراره، يقول مصطفى صادق الرافعي: "فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظه بأعينها متساوقة فيما ألفوه من طلاق الخطاب وألوان المنطق، وورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماتها في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم...حتى أحسوا بضعف الفطرة اللغوية فيهم."[1]

فالقرآن الكريم حجاجي بأسلوبه، وما يؤكد حجاجيته كونه خطابا يستهدف متلقين مختلفين، فهدفه بالدرجة الأولى التأثير فيهم وإقناعهم بناء على تقديم أدلة وبراهين تعدل مواقفهم وتقلب آرائهم لتغيير معتقداتهم الفاسدة، وما أن النص القرآني معجز بلفظه فهو لا يكشف عن كل معانيه، بل يضمنها في مفردات ترد أحيانا صريحة ومباشرة، وتكون آحيانا أخرى ضمنية مضمرة، تكتسي وشاحا لفظيا يصعب فهمها والوصول إليها إلا من خلال الاستعانة بكتب التفاسير التي توضح السياق القرآني، سواء ما تعلق منه بزمان النزول ومكانه، أو ما تعلق منه بالسياق اللساني عن طريق تتبع المقاطع اللغوية الواقعة قبل الوحدة اللغوية التي ندرسها أو بعدها.

إنّ الدافع الرئيس لاختيارنا سورة الملك للدراسة هو محاولة الكشف عن وجه من وجوه إعجاز الخطاب القرآني في عرض قضاياه المدججة بالحجج المتينة غير القابلة للدحض، وكذا تبيين السحر البياني للقرآن من خلال أساليب التصوير الفني والبلاغي في عرض المشاهد واستنطاقها، ومحاججة المشركين ذهنيا لتغيير معتقداتهم ودعوتهم إلى طريق الإيمان والحق، وكذا تثبيت المؤمنين على دين التوحيد واتباع أمر الله الواحد

الأحد، كل ذلك يقودنا إلى الإجابة عن التساؤل التالي: كيف حققت الصور البيانية حجيتها ضمن الخطاب القرآني؟ وعلى ماذا اعتمدت للوصول إلى إقناع المخاطبين؟

أولا-ماهية الحجاج:

تكاد تجمع المعاجم العربية في تعريفها للحجاج على ما جاء به ابن منظور في لسان العرب إذ يقول: "يقال حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها [...] والحجة البرهان، وقيل الحجة: ما دوفع به الخصم وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محجاج أي جدل. والتحاج: التخاصم، وجمع الحجة: حجج وحجاج. وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة، وحجه يحجه حجا غلبه على حجته. وفي الحديث: فحج آدم موسى أي غلبه بالحجة واحتج بالشيء اتخذه حجة(...) والحجة الدليل والبرهان"[2]. كما تناول الزمخشري مفهوم الحجاج في كتابه أساس البلاغة فنجده يقول: "حجج: احتج على خصمه بحجة شهباء، وبحجج شهب، وحاج خصمه فحجه. وفلان خصمه محجوج وكانت بينهما محاجة وملاجة"[3]، والحجاج بهذه الصيغة ورد مرادفا للجدل، والذي يعني مقابلة الحجة بالحجة، وذلك يكون أثناء المخاصمة بين طرفين، أما الحجة فيراد بها الدليل والبرهان الذي يستعمله المحاج كوسيلة تحصل له الغلبة بها على الخصم، وهي مركبة من مقدمات مسلم بها عند الخصم، المقصود منها إلزام الخصم وإسكاته.

وقد وردت لفظة(حجج) وما تصرف عنها في القرآن الكريم في مواضع متعددة وبصيغ مختلفة، وإذا ما تتبعنا مواضع لفظة (حجج) في القرآن الكريم مستثنين ما جاء منها على الحقيقة الشرعية المراد بها (الحج) فإننا نجدها تحيل حسب رأي المفسرين إلى معنيين هما: الخصومة والجدل، ومع ذلك فقد فرق القرآن الكريم بين معنيي اللفظين "الجدل والحجاج" في الاستعمال، وقد تفطن محمد الطاهر بن عاشور إلى هذا الموضوع وأشار إليه في كتابه تفسير التحرير والتنوير، فعنده معنى "حاج، خاصم، والمجادلة مفاعلة من الجدل وهو القدرة على الخصام والحجة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيه"[4]، وهو ما يؤكد الصفة الحجاجية للقرآن الكريم، كون المتقبلين لهذا الخطاب كثر وعلى مستويات مختلفة، وكذلك الرافضون له رغم ضعف حججهم، فحري بنا القول إن الخطاب القرآني حجاجي صرف؛ كونه يدعو بصريح اللفظ إلى نبذ العنف في حل المعضلات وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: 256.

وهذا لا يعني ترك الناس دون هداية وإنما سبيلهم إلى الإيمان القائم على النظر والاستدلال بالحجج الواردة في الخطاب القرآني جميعه تقريبا. وقد اهتم الدارسون بموضوع الحجاج نظرا لما يكتسيه من أهمية بالغة وتعدد استعمالاته وتباين أشكال توظيفه ومرجعياته إذ يعرفه أبو الوليد الباجي بقوله: "وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال، وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا عُلم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم"[5]، فالحجاج

حسب الباجي علم قائم بذاته له أركانه وقوانينه، وآلياته التي تميزه، يهدف إلى تحقيق المعرفة والتمييز بين ما هو حق وباطل.

ثانيا-ماهية البيان:

يعد الجاحظ (ت 255ه) أول من بسط القول في دراسة البيان وأسهب في تتبع معانيه، بل وكان موضوعا لمؤلفه الشهير(البيان والتبيين) الذي عرض لآراء السابقين من مختلف الأمم فيه، ليقف عنده هو الآخر بالتفصيل معرفا إياه بقوله: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[6]، يبدو من خلال هذا التعريف أن البيان عند الجاحظ يقصد به القدرة على الإبانة والكشف عما في الصدور، ويؤكد على الوظيفة التواصلية للقول هذا من جهة، ومن جهة أخرى يركز على وظيفة الفهم والإفهام التي تستدعي وجود المتكلم والمتلقي دون أن يغفل ضرورة المقام الذي يرد فيه الخطاب لتحقق الوظيفتين بالإضافة إلى ذلك فقد أشار إلى ضرورة التلاؤم بين المعنى والقول، وهو ما يجعل البلاغة عنده تكتسي بعدا تداوليا.

ويعرّف فضل حسن عباس علم البيان بقوله: "هو علم الصور الكلامية المؤثرة، ولا ريب أن الصور تختلف في تأثيرها على النفس، سواء في ذلك الصور الكلامية أم الصور الحسية، فهناك الصورة التي تروقك وتعجبك، وهناك الصورة التي تستكره وتستبشع، ولكن ثالثة تصل إلى أعماق نفسك، بل تهز هذه النفس هزة طرب وتقدير، فبقدر ما يبدع المصور في تحسين صورتهن يكون لها من التأثير في نفوس الآخرين، فالصورة الجيدة المؤثرة لابد لها من خيال خصب، وعاطفة مشبوبة، وإحساس مرهف، وذهن ثاقب يشترك فيها المصور والمصور له على السواء، وكما يصدق هذا على الصورة الحسية، يصدق على الصورة الكلامية كذلك."[7]

ويذهب أحمد أحمد بدوي إلى أن موضوع علم البيان "ذلك التصوير، الذي يهب الفكرة وضوحا وقوة فيزيد تأثيرها في نفس المخاطب أو القارئ، بالالتجاء إلى الخيال المصور، ومن أجل هذا كان موضوع درسه التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز..."[8]، فالتصوير عملية فنية استدلالية تقوم على التأثير في المتلقين من خلال الانتقال من المعنى إلى معنى المعنى، وتجاوز الزخرف اللفظي وربطه بالبعد الإقناعي.

ثالثا-حجاجية الصور البيانية:

1-حجاجية المجاز:

يوظف البلاغيون مصطلح المجاز للدلالة على انتقال الألفاظ من معنى إلى آخر، ويحده السكاكي بقوله: " المجاز مفعل من جاز المكان يجوزه إذا تعداه وهو الكلمة إذا استعملت في غير ما هي موضوع له، وهو ما تدل عليه بنفسها، فقد تعدت موضعها الأصلي"[9]، ويراد بهذا الكلام الانزياح الدلالي مع اشتراط وجود قرينة

أو مناسبة بين الدلالتين الأولى والثانية، والخطاب القرآني يزخر بكثير من الصور المجازية التي تعتمد كوسيلة للاستدلال، لذا فإن توظيف المجاز في الخطابات يتجاوز الوظيفة الإخبارية والإمتاعية، فكل ما ينطق به على سبيل المجاز يصلح أن يكون حجاجا على حد قول طه عبد الرحمان: "إذ حد المجاز أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها بحسب القيمة التي تحملها."[10]

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الملك: 1، وردت في الآية الكريمة لفظة "اليد" على سبيل المجاز للدلالة على تفرد الله تعالى بالملك والإحاطة به، فالظرفية "بيده الملك" هنا مجاز عقلي علاقته السببية، فاليد سبب في القوة والسيطرة "مستعملة في معنى إحاطة قدرته بحقيقة الملك، والملك على هذا اسم للحالة التي يكون صاحبها ملكا... واليد: تمثيل بأن شبهت الهيئة المعقولة المركبة من التصرف المطلق في الممكنات الموجودة والمعدومة بالإمداد والتغيير والإعدام والإيجاد؛ بهيئة إمساك اليد بالشيء المملوك تشبيه معقول بمحسوس في المركبات"[11]، وتمثل هذه الصورة المجازية دليلا على القدرة الإلهية والعموم في التصرف في جميع خلقه بما يشاء لا يسأل عن حكمه ولا يشاطره فيه أحد؛ فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فصلة الموصول وردت لتتمة المعنى وتأكيد المقصود وهو إبطال دعوى المشركين في نسبة الألوهية للتماثيل والأصنام العاجزة؛ التي هي من صنع أيديهم.

تحتوي البنية الحجاجية لهذه الصورة الحجاجية على مقدمات متسلسلة استهلت بصيغة المبالغة "تبارك" الدالة على التعظيم والإجلال وكثرة الخيرات والإجزال في العطاء اللامحدود، وفي ذلك دعوة إلى التدبر والتأمل في ملكوت الله واستحضار عظمته من خلال خلقه الظاهر للعيان، ليتم استدلاله بقوله: ﴿الذي بيده الملك﴾ ما يؤكد أنه له ملك عالم الموجود والمحسوس، العالم العلوي والسفلي، ونفيه مشاركة أي أحد لملكه وتفرده بالألوهية والربوبية من خلال إيراد الدليل ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ وهو تعميم بعد تخصيص يؤكد كمال قدرته وعمومها ودحض ادعاءات المشركين وتعجيزهم وأصنامهم المتعددة التي يعبدونها، ليصل بالمتأمل

والسامع المتمعن على مر العصور إلى الإذعان للنتيجة والحقيقة الواحدة ألا وهي وحدانية الله وكماله وقدرته المطلقة في التصرف.

2-حجاجية التشبيه:

التشبيه صورة تقوم على تمثيل شيء(حسي أو مجرد) لاشتراكهما في صفة (حسية أو مجردة) أو أكثر، ويرد التشبيه كآلية حجاجية في الخطابات الحجاجية بما في ذلك الخطاب القرآني الذي يكون مهيئا لمواجهة أصناف مخاطبيه، ويعرفه بيرلمان: "هو طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان أن تكون مترابطة"[12]، فالتشبيه على حد قوله آلية حجاجية تلعب دورا هاما، فهو يكسب الخطاب طاقة وقدرة على التأثير في المتلقين فهي "تخلق عالما فنيا متوازيا تتآلف فيه الأشياء وتتكاتف وتتعانق في ود جميل، ومن ثم تكون له هذه القوة الساحرة على التأثير في النفوس التي تدهش وتعجب ثم تنفعل وتفعل"[13].

أ-التشبيه البليغ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ الملك: 5، تضمنت الآية الكريمة آلية من آليات الحجاج البلاغية والمتمثلة في التشبيه البليغ في لفظة "مصابيح"، حيث شبه المولى عز وجل النجوم المتلألئة بالمصابيح المستعملة للزينة والإنارة لما لها من جمال وروعة المنظر؛ ليدل القرآن بأسلوبه البياني على الدقة في خلق الله وصنعه المعجز الدال على قدرته و"سميت النجوم هنا مصابيح على التشبيه في حسن المنظر فهو تشبيه بليغ. وذكر التزيين إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال، أي زيّناها لكم"[14]، والتشبيه هاهنا حجاجي بالدرجة الأولى يعمل على لفت انتباه المتلقين ودعوتهم للتأمل التفكر في خلق الله ولطفه بالعباد، فلم تكن مجرد زينة وإنما كانت نورا لهم في الظلام الحالم وسبيلا للاهتداء ومعرفة المسالك والاتجاهات، هذا من جهة ومن جهة أخرى فيه تحد للمشركين المشككين في وحدانيته وعظمته، فكان القرآن الكريم "طريقه إلى العقل هو ذات الطريق إلى القلب والوجدان، واتخذ لذلك وسيلة التصوير فبلغ الغاية في مادته وطريقته، وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني من أقرب طريق، ومن أرفع طريق"[15]، كان دليله مأخوذ من صفحات الوجود التي ترتادها الأبصار ويهيم بها العقل متسائلا عن حقيقة خالقها. ويمكن التمثيل للبنية الحجاجية كما يأتي:

استهلت البنية الحجاجية بتشبيه بليغ شكل مقدمة حجاجية ودليلا واضحا على قدرة الله وإتقان خلقه ودقته المتناهية، مستدلا بخلق النجوم وذكر وظيفتها الجمالية والتزيينية والنفعية للبشر، تليها الحجة الموالية التي يذكر فيها وظيفة حراسة السماء من استراق الشياطين السمع وتلقف أخبار الأرض وهاته الحجج واضحة وماثلة للعيان لا يمكن إنكارها، وقد وردت المقدمات بشكل متسلسل تقودنا إلى النتيجة الحتمية المتمثلة في المصير الحتمي للشياطين وهو نار جهنم، وقد أسهمت الروابط الحجاجية "الواو، لام القسم، قد" في إثبات الحجة والتأكيد عليها كما أسهم الرابط التساوقي "الواو" في تحقيق تتابع الحجج بشكل مرتب ومتجانس جعل منها بنية متماسكة ومنسجمة، مما حقق للقضية المطروحة قوة حجاجية غير قابلة للدحض.

ب-التشبيه التمثيلي:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ **الملك: 6-7**، يحملنا سياق هذه الآية إلى عالم الحساب والعقاب، حيث يتوعد الله سبحانه وتعالى عبر هذه الآيات الذين كفروا به من جن وإنس بعذاب جهنم، وقد ورد التشبيه التمثيلي في قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ كآلية حجاجية حيث عمد إلى محاججة المتلقين اعتمادا على خاصية التصوير الفني والتخييل خلال عرض مشهد جهنم وأهوالها يوم القيامة مرهبا الكافرين، منبها إياهم مما ينتظرهم بسبب شركهم وعصيانهم لأوامر الله جل وعلا، فقد شبّه صوت لهيب نار جهنم بالشهيق الذي هو "تردد الأنفاس في الصدر لا تستطيع الصعود لبكاء ونحوه أطلق على صوت التهاب نار جهنم الشهيق تفظيعا له لأن قوله: ﴿سمعوا لها﴾ يقتضي أن الشهيق شهيقها"[16]، وهذا التشبيه فيه دلالة على فظاعة الصوت الذي يصدر منها وهي تغلي بالكفار. ونمثل للبنية الحجاجية كما يأتي:

تشكلت البنية الحجاجية من مقدمة ونتيجة جمعت بينهما علاقة سببية، حيث ذكر الله سبحانه وتعالى حجته على الكافرين مسبقا حتى لا يترك لهم مجال للجدال يوم القيامة ألا وهي الشرك بالله وعصيانه والكفر به، ليردفها بنتيجة مباشرة تمثلت في العذاب بنار جهنم، وقد ركز الأسلوب القرآني على الترهيب من خلال تصوير المشهد المفزع لعذاب الكفار، والذي منح هذه الحجة قوة لا نظير لها إلى جانب الرابط الحجاجي "الواو" وإذا الظرفية التي تدعم إثباتها وتوجهها وتربطها بالنتيجة بشكل آلي وإلزامي.

3-حجاجية الاستعارة:

تعرف الاستعارة بأنها "استعمال لفظ ما في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع وجود قرينة مانعة من إيراد المعنى الموضوع له، فالاستعارة في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه"[17]، وهي إحدى الوسائل البلاغية التي يتوسل بها المتكلم الوصول إلى غايته قصد التأثير في المتلقي، وقد حظيت باهتمام الباحثين ضمن النظرية الحجاجية باعتبارها إحدى أهم الوسائل التي يستغلها المتكلم في ممارسة خطابه الإقناعي للتأثير في المتلقي، فهي -الاستعارة- "ليست مجرد مجاز يحيل إلى فضاء تخييلي في اللغة بل هي عملية استبدال وتحويل داخل الوعي نفسه"[18]، حيث تشتغل حجاجيا من خلال عملية الاستبدال، أين يتم بيان قضية بتشبيهها ونقلها إلى فضاء مجازي، وتصبح بذلك الاستعارة مركز الحجاج باعتبار أنّ "العلاقة الاستعارية هي أدل ضروب المجاز على ماهية الحجاج"[19]، على حد قول طه عبد الرحمان.

وتحقق الاستعارة في الخطاب القرآني وظيفتها الإقناعية بشكل مكثف استنادا على تحويل المعاني المتخيلة إلى صور حسية تلفت المتلقين وتشد انتباههم لتمارس قوتها التأثيرية وتغير مسارهم الذهني والإقتناعي. والأمثلة الآتية من سورة الملك توضح الاشتغال الحجاجي للاستعارة القرآنية كما يأتي:

أ-الاستعارة التصريحية:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الملك: 15، ضرب المولى -عز وجل- مثلا للاستدلال على وحدانيته وقدرته خلق الأرض وما عليها، وجعلها طيعة للناس صالحة للحياة ومخرجة للرزق، وقد استعمل لفظ "ذلولا" للدلالة على الانقياد والمطاوعة والتي هي من صفات الدواب التي تستعمل للركوب والانتفاع منها "فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقتها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة"[20]، وتتضح هذه الاستعارة بشكل مفصل من خلال استخدام لفظة "المناكب" للدلالة على الركوب والضرب في الأرض سعيا لطلب الرزق، فالمشي على هذا التوصيف يشبه ركوب الدواب والأكل منها شبيه بأكل اللحوم والسمن والأجبان وغيرها. ونمثل لهذه البنية كما يأتي:

الملاحظ على هذه البنية الحجاجية أنها مكتملة وفي شكل لحمة واحدة، وما حقق انسجامها مجموعة من الروابط الحجاجية مثل: "الفاء، الواو" التي جعلت العلاقة بين مقدماتها تراتبية، كما أضفت عليها قوة حجاجية من خلال ترابطها وتدرجها للوصول النتيجة المتمثلة في قدرة الله وإعجازه في الخلق والحكم.

ب-الاستعارة التمثيلية:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الملك: 22

تشتمل الآية الكريمة على ثلاث استعارات تمثيلية، وقد عبر عن ذلك **محمد الطاهر بن عاشور** بقوله: "فقوله يمشي مكبا على وجهه" تشبيه لحال المشرك في تقسم أمره بين الآلهة طلبا للذي ينفعه منها الشاك في انتفاعه بها، بحال السائر قاصدا أرضا معينة ليست لها طريق جادة فهو يتتبع بنيات الطريق الملتوية وتلتبس عليه ولا يوقن بالطريقة التي تبلغ إلى مقصده فيبقى حائرا متوسما يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل فيعلم بها أنّ الطريق مسلوكة أو متروكة. وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليها بقوله "مكبا على وجهه" بتشبيه حال المتحير المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه في شدة اقترابه من الأرض. وقوله "من يمشي سويا" تشبيه لحال الذي آمن برب واحد الواثق بنصر ربه وتأييده وبأنه مصادف للحق، بحال الماشي في طريق جادة واضحة لا ينظر إلا إلى اتجاه وجهه فهو مستو في سيره"[21]، هذه الاستعارات تشتغل حجاجيا لإقناع المتلقين حول قضية الإيمان بالله وتوحيده، حيث يسوق لنا القرآن الكريم مثلا لحال المؤمن والكافر في الدنيا وما سيكون عليه حالهم يوم القيامة، فيحشر المؤمن العالم بالحق العامل به في أقواله وأفعاله مستقيما في مشيه على صراط مستقيم إلى جنة النعيم، بينما يحشر الكافر الضال الظالم ماشيا على وجهه منقادا على جهنم وبئس المصير.

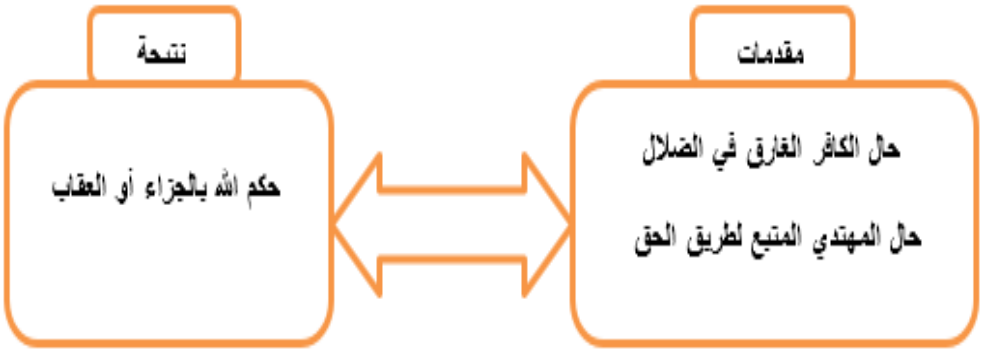

تشكّلت البنية الحجاجية من مقدمتين حجاجيتين وردتا بصيغة الاستفهام الإنكاري الذي يعمل على إثبات القضية، بالإضافة إلى توظيف الاستعارة التي تقرب المعنى لذهن السامع مما يزيد الحجة قوة في التأثير، ويربط بين المقدمات والنتيجة علاقة استنتاجية يصل إليها المتلقي عن طريق المقارنة.

الخاتمة:

من خلال ما سبق عرضه في دراسة البيان الحجاجي في سورة الملك نخلص إلى عدة نقاط هامة نورد بعضها على سبيل الذكر لا الحصر كما يأتي:

- شكّل القرآن الكريم بنية خصبة تزخر بالآليات البلاغية التي وظفت لعرض مشاهد كونية مختلفة للدلالة على وحدانية الله سبحانه وتعالى والتأكيد على قدرته المطلقة في الخلق والحكم، وكذا اعتماد الترهيب والترغيب من خلال تصوير مشاهد العقاب والجزاء.

- اشتمال سورة الملك على عدد من الأسرار البلاغية التي كانت سببا في إعجاز المشركين ويظهر ذلك جليا في نظمها المحكم وأساليبها الموزونة البليغة، حيث تراوحت الأدلة والحجج المقدمة بين المجاز والتشبيه والاستعارة.

- خروج الصور البيانية عن إطار الإمتاع لتتعداه إلى الوظيفة الإقناعية اعتمادا على استراتيجية التخييل في مخاطبة العقل ومداعبة العواطف لاستمالة المتلقين والتأثير فيهم

- مخاطبة القرآن الكريم العرب أهل البلاغة والفصاحة بأسلوب بليغ معجز متحديا إياهم من جهة، وحملهم على الإذعان والإقرار بوحدانيته وعظمته والخضوع له وطاعته من جهة أخرى، كل ذلك من خلال طرح حقائق وجب الاقتناع والتصديق والإيمان بها كحقيقة الخلق والموت والبعث والجزاء والعقاب.

هوامش:

[1] مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (2003)، دار الكتاب العربي (لبنان)، ص132.

[2] ابن منظور، لسان العرب، (1300هـ)، المطبعة الميرية (مصر)، ج 3، ص51.

[3] أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزركشي: أساس البلاغة، (1998)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية (لبنان) ج1، ص169.

[4] محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، (1984)، الدار التونسية للنشر (تونس)، ج3، 194.

[5] أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، (2001)، تح: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي (لبنان)، ص08.

[6] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبين، (2003)، دار الكتب العلمية (لبنان)، مج1، ج1، ص60.

[7] فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع، (2007)، دار الفرقان للنشر والتوزيع (الأردن)، ص14.

[8] أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، (2005)، نهضة مصر للطباعة للنشر والتوزيع (مصر)، ص21.

[9] السكاكي: مفتاح العلوم، (1987)، دار الكتب العلمية (لبنان)، ص360، 361.

[10] طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، (1998)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء)، ص231.

[11] محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 29، ص10.

[12] عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية في آليات التواصل والحجاج، (2006)، أفريقيا الشرق للنشر (الدار البيضاء)، ص91.

[13] عبد الرحمان حجازي، "بلاغة التشبيه في النقد العربي القديم والحديث"، مجلة علامات، نوفمبر2008م، مج67، ص125.

[14] محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 29، ص21.
[15] صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، (1995)، الشركة العالمية للنشر (مصر)، ص187.
[16] محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ص23.
[17] مسعود بودوحة: مدخل إلى البلاغة العربية وعلومها، (2015)، بيت الحكمة للنشر والتوزيع (الجزائر)، ص70
[18] عمار ناصر: الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، (2009)، الدار العربية للعلوم ناشرون (لبنان)، ص160.
[19] طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص232.
[20] محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 29، ص32.
[21] المصدر نفسه، ج 29، ص 45.

قائمة المصادر المراجع:

المصادر:

القرآن الكريم

المراجع:

1. أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، (2005)، نهضة مصر للطباعة للنشر والتوزيع (مصر).
2. جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، (1300ه)، المطبعة الأميرية (مصر).
3. السكاكي: مفتاح العلوم، (1987)، دار الكتب العلمية (لبنان).
4. صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، (1995)، الشركة العالمية للنشر (مصر).
5. طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، (1998)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء).
6. عبد الرحمان حجازي، "بلاغة التشبيه في النقد العربي القديم والحديث"، مجلة علامات، نوفمبر2008م.
7. عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية في آليات التواصل والحجاج، (2006)، أفريقيا الشرق للنشر (الدار البيضاء).
8. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبين، (2003)، دار الكتب العلمية (لبنان).
9. عمار ناصر: الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، (2009)، الدار العربية للعلوم ناشرون (لبنان).
10. فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع، (2007)، دار الفرقان للنشر والتوزيع (الأردن).
11. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزركشي: أساس البلاغة، (1998)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية (لبنان).
12. محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، (1984)، الدار التونسية للنشر (تونس).
13. مسعود بودوحة: مدخل إلى البلاغة العربية وعلومها، (2015)، بيت الحكمة للنشر والتوزيع (الجزائر).
14. مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (2003)، دار الكتاب العربي (لبنان).
15. أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، (2001)، تح: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي (لبنان).